سورة النصر

"دراسة لغوية بيانية"

محمد فاضل صالح السامرائي

جامعة الشارقة ـ كلية الآداب

قسم اللغة العربية

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة سورة النصر دراسة لغوية بيانية، بمعنى أنه يتناول أسرار التعبير ودقته في اختيار الألفاظ في هذه السورة. وقد بين الباحث أن كل كلمة فيها جاءت في المكان الذي يقتضيه سياق النص، وأن أي تعبير آخر لا يمكن أن يحل محل تعبير السورة فيعطي المعنى نفسه.

كما بين الباحث ارتباط آيات هذه السورة ببعضها، وذكر عناية القرآن بالألفاظ والأساليب، إذ إن القرآن ينتقي الألفاظ بدقة ويضعها في المكان الذي يتطلبه سياق النص، حيث تصل هذه العناية إلى درجة أنه لا يمكن استبدال لفظة مكان اللفظة التي وردت في السورة وإن كانت ترادفها في المعنى، كما لا يمكن استبدال أي أسلوب بأسلوب السورة؛ لأن هذا يؤدي إلى خلل في الصورة التي يرسمها البيان القرآني.

لقد بين الباحث التناسب بين هذه السورة والسورة التي قبلها والسورة التي تليها. ثم شرع في التفسير اللغوي البياني للسورة، فذكر سبب افتتاح السورة بإذا الشرطية وسبب استعمال الفعل (جاء) والفرق بينه وبين الفعل (أتى)، وسبب إضافة النصر إلى لفظ الجلالة، وسبب تقديم النصر على الفتح، وسبب استعمال لفظة (أفواج) دون ما يرادفها من معنى، كما بين الاحتباك في الآية الأخيرة، إلى غير ذلك من صور البيان في السورة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد، وأنه بهر أرباب البيان من العرب، حتى قال أحد صناديد قريش وهو الوليد بن المغيرة واصفاً القرآن الكريم: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يُعلى»(١).

وقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [هود: ١٣]، فلما عجزوا تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣] وهذا التحدي يشمل طوال السور وقصارها.

وقد أخبر الله تعالى أن جميع الخلق لو اجتمعوا وتعاونوا إنسهم وجنهم على الإتيان بقرآن مثل هذا لن يستطيعوا، قال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا**﴾ [الإسراء: ٨٨].

إن التعبير القرآني تعبير بياني مقصود، كل لفظة فيه جاءت في المكان الذي يقتضيه سياق النص، بحيث لا يصح إبدال لفظة أخرى بها وإن كانت ترادفها في المعنى.

ولعل أكثر من يقرأ القرآن اليوم لا يتذوقونه كما تذوقه أرباب الفصاحة والبيان من العرب الأوائل، ولا يدركون أسرار الإعجاز البياني ووجه البراعة فيه، فقد يفهمون معنى السورة أو الآية على وجه الإجمال، ولكن قد لا يدركون أسرار التركيب في التعبير القرآني ودقّة ألفاظه.

(١) تفسير ابن كثير ١٤/ ١٨٢.

وقد اخترت في هذا البحث دراسة سورة قصيرة، معانيها واضحة، وعلى الرغم من قصرها فيها من البيان ما فيها، وهي سورة النصر.

وسأبيّن في دارسة هذه السورة القصد في التعبير القرآني، بمعنى أنني سأحاول أن أثبت أن كل كلمة جاءت في المكان الذي يقتضيه سياق النص، وأن أي تعبير آخر لا يمكن أن يحل محل تعبير السورة فيعطي المعنى نفسه.

وقد استعنت في هذه الدراسة بكتب اللغة والتفسير وغيرها من المظانّ، وأما المسائل التي اجتهدت فيها برأيي فأسأل الله تعالى ألاّ يحرمني أجر المجتهدين فيها.

وأود أن أذكر في الختام أمراً تجدر الإشارة إليه، وهو أنه قد يتبادر إلى الذهن أن المقصود من قولنا: (دراسة بيانية) علم البيان الذي هو فرع من أفرع علم البلاغة، وليس الأمر كذلك، بل المقصود من الدراسة البيانية أو البيان القرآني هنا الدراسة التي تبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، إذ تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية البيانية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف وورود لفظة دون غيرها مما يرادفها، وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً** ﴾ [النصر: ١ ـ ٣]

إن هناك تناسباً ظاهراً بين خاتمة السورة التي قبلها ـ وهي سورة الكافرون ـ وأول هذه السورة يوضحه أبو حيان في قوله: «لما كان في قوله: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦] موادعة جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم وأنه آن مجيء نصر الله وفتح مكة واضمحلال ملة الأصنام وإظهار دين الله تعالى»(١).

والمعنى أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعلن براءته من الأصنام وعبادتها وأعلن المفاصلة في قوله: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ فبشره الله تعالى بأن دينهم سيضمحل ويزول، وأن دينه سيعلو وينتصر ويصبح دين أكثر الناس.

وقد ذكر الفخر الرازي وجهاً آخر للتناسب وهو «أنه تعالى قال: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾ [محمد: ٧] وأن محمداً ـ عليه السلام ـ نصر الله حين قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون** ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢] فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله، فلا جرم قال: ﴿ **إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّه** ﴾(٢).

إنه حين نصر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ دين الله وتبرأ مما يعبد الكافرون تحقق وعد الله بالنصر، قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين** ﴾ [الروم: ٤٧].

كما أن هناك مناسبة بين سورة النصر والسورة التي تليها، وهي سورة المسد، فإنه لما ذكر ـ سبحانه ـ في سورة النصر دخول الناس في ملة الإسلام عقبه ـ سبحانه ـ بذكر هلاك بعض من لم يدخل فيها وخسرانه(٣).

---

(١) البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي ٨/ ٥٢٤، وينظر روح المعاني ـ الآلوسي ٣٠/ ٢٥٥.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٣.

(٣) ينظر روح المعاني ٣٠/ ٢٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٦.

وأود أن أذكر هنا أن هناك من يذهب إلى أن القول بهذا التناسب فيه تمحّل وتكلّف، بحجة أن سورة المسد نزلت قبل سورة النصر بسنين كثيرة، فكيف يقال بالمناسبة بين السورتين؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: إن كثيراً من العلماء رجحوا القول بأن ترتيب سور القرآن توقيفي، ومن أشهر القائلين بذلك: أبو بكر الباقلاني، وأبو بكر بن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وأبو جعفر بن الزبير، والزركشي، وابن حجر، وغيرهم[1].

وعلى إثر هذا الترجيح ذهب بعض العلماء إلى أن هناك تناسباً بين السور، كأبي حيان في تفسيره (البحر المحيط)، والآلوسي في تفسيره (روح المعاني)، وابن الزبير الغرناطي في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، والبقاعي في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآي والسور). ومن المعاصرين: الدكتور فاضل السامرائي في كتابه (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم).

تبدأ السورة بقوله سبحانه: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾

والملاحظ أن الآية افتتحت بـ(إذا) الشرطية، وهي ـ كما يقول النحاة ـ تستعمل للمقطوع بحصوله أو الكثير الوقوع، وهذا بخلاف (إنْ) الشرطية فإنها تستعمل للمعاني المحتملة، والمشكوك في حصولها، يقول الزمخشري: «ولا تستعمل (إنْ) إلا في المعاني المحتملة، المشكوك في كونها، ولذلك قبح (إنْ احمرّ البسر كان كذا) و(إنْ طلعت الشمس آتك) إلا في اليوم المغيم»[2].

«فمن المعاني المحتملة الوقوع قوله تعالى: ﴿**فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٠]،

(١) ينظر مقدمة كتاب (البرهان في تناسب سور القرآن) لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ـ صفحة ٥٢ وما بعدها.

(٢) شرح المفصل ـ ابن يعيش ٩/ ٤.

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ ﴾ [المائدة: ٦]. ومن المعاني المشكوك في حصولها نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣](١).

وأما (إذا) فإنها تكون ـ كما ذكرنا ـ للمقطوع بحصوله وللكثير الوقوع، جاء في (كتاب سيبويه): «ويبين هذا أن (إذا) تجيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنك لو قلت: (آتيك إذا احمرّ البسر) كان حسناً، ولو قلت: (آتيك إنْ احمرّ البسر) كان قبيحاً»(٢)، وذلك أن البسر لا بدّ من احمراره.

وجاء في (الإتقان في علوم القرآن): «تختص (إذا) بدخولها على المتيقَّن والمظنون والكثير الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنها تستعمل في المشكوك والموهوم والنادر، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ ﴾ [المائدة: ٦] ثم قال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة: ٦] فأتى بـ(إذا) في الوضوء لتكرره وكثرة أسبابه، و بـ(إنْ) في الجنابة؛ لندرة وقوعها بالنسبة إلى الحدث.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] فأتى في جانب الحسنة بـ(إذا)؛ لأن نعم الله على العباد كثيرة ومقطوع بها، و(إنْ) في جانب السيئة؛ لأنها نادرة الوقوع ومشكوك فيها»(٣).

لعله مما سبق تبين لنا سبب افتتاح آية النصر بـ(إذا)، فإن الله أراد أن يخبر المسلمين أن مجيء النصر والفتح أمر متيقن لا محالة من حصوله؛ ولذا افتتح السورة بأداة الشرط (إذا)، وجاء الفعل بعدها ماضياً.

(١) معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ٤ / ٥٩.
(٢) الكتاب ـ سيبويه ١ / ٤٣٣.
(٣) الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ٣ / ١٠٢٢.

ثم إن هناك سبباً آخر لاستعمال (إذا) في آية النصر وهو: أن المراد بالفتح في الآية فتح مكة، وعليه فالفتح مستقبل، ودخول الناس في دين الله أفواجاً مستقبل أيضاً، وهو الأليق باستعمال (إذا)(١)؛ لأن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان. جاء في (التحرير والتنوير): « فـ(إذا) اسم زمان مطلق، فقد يستعمل للزمن المستقبل غالباً، ويكون الفعل الذي تضاف إليه بصيغة الماضي غالباً لإفادة التحقق »(٢).

ثم إننا نلاحظ أنه تارة يستعمل الفعل (جاء) مع النصر، كما في آية النصر، وكما في قوله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقوله: ﴿ **وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ويستعمل الفعل (أتى) معه تارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فما الفرق بين مجيء النصر وإتيانه؟ وما سبب هذا التخصيص؟

يقول الراغب الأصبهاني مبيناً الفرق بين الإتيان والمجيء: « الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه: أَتيّ »(٣).

ويقول: « المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم؛ لأن الإتيان مجيء بسهولة »(٤).

ويقول الدكتور فاضل السامرائي مفرقاً بينهما: « والذي استبان لي أن القرآن الكريم يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقَّة، أو لما هو أصعب وأشقّ مما استعمل له أتى »(٥).

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصبهاني ـ صفحة ١٨.

(٤) المفردات في غريب القرآن ـ صفحة ٩١.

(٥) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ صفحة ٩١.

وضرب على ذلك أمثلة كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّور﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وذلك لأن هذا المجيء فيه مشقة وشدة، وقوله: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ [الكهف: ٧١] إلى غير ذلك من الآيات(١).

وقد استدل على هذه الصعوبة والمشقة أنه لم يرد في القرآن فعل مضارع للفعل (جاء) ولا أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، ولم يرد إلا الماضي وحده، بخلاف (أتى) الذي وردت فيه كل تصريفاته، فقد ورد منه الماضي؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه﴾ [النحل: ١] والمضارع، نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩] والأمر، نحو قوله: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ [الشعراء: ٣١] واسم الفاعل، نحو قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣] واسم المفعول، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ [مريم: ٦١](٢).

مما سبق يتبين لنا أن مجيء النصر أشق وأشد من إتيانه، وبالتأمل في الآيات التي سبق ذكرها يتضح سبب تخصيص بعضها بالمجيء وبعضها بالإتيان.

ففي آيتي يوسف والأنعام نلاحظ أنه قال في آية يوسف: ﴿جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] وفي آية الأنعام: ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] وسبب هذا التخصيص «أن الحالة الأولى أشق وأصعب؛ وذلك أن الرسل بلغوا درجة الاستيئاس وهي أبعد وأبلغ، وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذبوا فيما وُعدوا(٣)، وهذا أبلغ

(١) ينظر لمسات بيانية ـ صفحة ٩١.

(٢) ينظر لمسات بيانية ـ صفحة ٩١.

(٣) الأصوب أن يقال: كذبهم رجاؤهم النصر، أو كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم. (روح المعاني ١٣/ ٦٩، وتفسير الكشاف ٣/ ٣٣٠). جاء في (تفسير الكشاف ٣/ ٣٣٠): «المعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب».

درجات اليأس وأبعدها، وعند ذاك جاءهم نصره سبحانه فنجّي من شاء وعوقب المجرمون.

في حين ذكر في الآية الأخرى أنهم كُذّبوا، أي: كذبهم الكافرون وأوذوا فصبروا، وفرق بعيد بين الحالتين، فقد يُكذَّب الرسل وأتباعهم ويؤذَون، ولكن الوصول إلى درجة اليأس والظن بالله الظنون البعيدة أمر كبير.

ثم انظر إلى خاتمة الآيتين تر الفرق واضحاً، فما ذكره من نجاة المؤمنين ونزول البأس على الكافرين في آية يوسف مما لا تجده في آية الأنعام يدلك على الفرق بينهما »(١).

بعد بيان الفرق بين مجيء النصر وإتيانه نستطيع أن نتبين سبب تخصيص النصر بالمجيء في آية النصر فنقول: إن نصر الله والفتح لم يجيئا إلا بعد عسر وشدة وتحمُّل المسلمين أصناف العذاب والمحن والفتن استمرت لأكثر من عقدين من الزمن، فناسب ذلك استعمال الفعل (جاء) الدالّ على الصعوبة والمشقة.

أما سبب استعمال الفعل (جاء) مع النصر في آية العنكبوت فإن سياق الآية يوضح ذلك. قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فالآية تتكلم على فريق من الناس؛ يقولون بألسنتهم: آمنّا بالله، فإذا أوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الإيمان، كعذاب الله الذي يصرف الإنسان عن الكفر.

فلما كان الكلام على الإيذاء بسبب الإيمان ناسب ذلك استعمال الفعل (جاء) الدالّ على المشقة والشدة.

(١) لمسات بيانية ٩٩.

وقد يكون هناك سبب آخر لذلك وهو أن النصر لا يجيء إلا بعد أن يبتلي الله عباده المؤمنين بأصناف البلايا والمحن، فإذا رأى ثباتهم على الحق والإيمان كتب الله لهم النصر، فناسب ذلك الابتلاء استعمال الفعل (جاء) الدالّ على الصعوبة والمشقة.

فانظر دقة هذا التعبير وسموّه.

ومن الملاحظ أن النصر في سورة النصر مضاف إلى لفظ الجلالة، وهذا من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وسبب ذلك أن «إضافة النصر إلى الله تشعر بعظيم هذا النصر، وأنه نصر عزيز خارق للعادة، اعتنى الله بإيجاد أسبابه ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها»(١).

جاء في (حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي): «وتقييد النصر بالإضافة إليه تعالى مع أن النصر لا يكون إلا من الله تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾؛ لتعظيم المضاف، أي: إذا جاءك نصر لا يليق إلا بالله ولا يفعله إلا هو فسبّح»(٢).

وقد يُعزى النصر إلى الله أو الرب إذا لم يكن مضافاً، فمثال عزوه إلى الله قوله تعالى: ﴿**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**﴾ [الصف: ١٣]، ومثال عزوه إلى الرب قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ**﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقد يسأل سائل عن سبب عزوه إلى الله في آية الصف، وعزوه إلى الرب في آية العنكبوت؟

أقول: إن هذا التخصيص يعود لأكثر من سبب، ومن هذه الأسباب:

١ ـ أن آية الصف وردت في خطاب المؤمنين، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ**

(١) التحرير والتنوير ـ ابن عاشور ١٢/ ٥٩٠.

(٢) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي ٤/ ٦٠٨.

أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

فقال: ﴿ **نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ** ﴾؛ ليدل على أن النصر إنما هو من الله وليس بجهاد المؤمنين وعدتهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ [آل عمران: ١٢٦] [١].

أما آية العنكبوت فقد ذكر الرب فيها؛ لأن «الرب اسمٌ مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة» [٢].

٢ ـ ورد لفظ (الرب) في العنكبوت في خمسة مواطن وهي الآيات (١٠، ٢٦، ٣٠، ٥٠، ٥٩) في حين لم يرد في الصف ألبتة، فناسب ذلك أن يرد لفظ (الرب) في العنكبوت، ولا يرد ذكره في الصف.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا قال: ﴿ **إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ** ﴾ وقال: ﴿ **وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ** ﴾ ولم يقل مثلاً: جاءك، أو جاءكم ؟

ونقول: لو قال: (إذا جاءك نصر الله) لكان المعنى أن الله سبحانه قد مَنَّ على رسوله بالنصر دون المؤمنين، وهذا المعنى غير مراد، لأن نصر الله نصر لرسوله وللمؤمنين؛ ولذا فقد جاء لفظ الفعل مطلقاً.

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على قوله سبحانه: ﴿ **وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾ فإنه لو قال: (ولئن جاءك نصر من ربك) ما قال المنافقون: ﴿ **إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾؛ لأنه سيكون حينئذ نصراً خاصّاً بالرسول فلا مسوّغ لقول المنافقين: ﴿ **إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾، ولكن التعبير جاء مطلقاً؛ ليفيد أن نصر الله جاء للرسول والمؤمنين؛

---

(١) ينظر على طريق التفسير البياني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ١/ ٢٣١.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٣٤.

ولذا قال المنافقون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ليشركوهم في الغنائم.

ثم إنه قد جاء بضمير الجمع في قوله (معكم) فناسب ذلك أن يأتي الفعل مطلقاً، ولو قال: (ولئن جاءك نصر من ربك) لناسب ذلك أن يقولوا (إنّا كنّا معك).

ثم إننا نلاحظ أنه أسند المجيء إلى النصر، ولم يقل مثلاً: إذا وقع، أو حصل نصر الله، فما سبب ذاك؟

والجواب أن في هذا التعبير غاية الإكرام والتقدير للنبي عليه الصلاة والسلام ولأمته، إذ المعنى أن نصر الله والفتح هما اللذان يجيئان ولا يُذهَب إليهما. جاء في (تفسير الرازي): «أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد ﷺ»(١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للإيذان بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام، وأنهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب»(٢).

ومن الملاحظ أيضاً أنه حيثما اجتمع النصر والفتح فإنه يقدم النصر كما في آيتي النصر والصف، إلا آية الفتح فإنه قدم فيها الفتح على النصر، فما سبب ذلك؟

يذكر الفخر الرازي سبب تقديم النصر على الفتح في آية النصر فيقول: «النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلّقاً، والظاهر أن النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه»(٣).

وجاء في (تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن) أن «النصر هو

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨٥، وينظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٩٦.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٢.

التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبتهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم... فعطف المسبَّب على السبب في قوله (والفتح)؛ لأن الفتح مسبب عن نصر الله تعالى إياه »[١].

و(أل) في (الفتح) للعهد، وهو الفتح الموعود به في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ** ﴾ [القصص: ٨٥]، وفي قوله: ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ** ﴾ [الفتح: ٢٧][٢].

وقد يقول قائل: لمَ قدم إذن الفتح على النصر في سورة الفتح فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً** ﴾ [الفتح: ١ ـ ٣] ؟

والجواب أن السورة تحدثت عن صلح الحديبية فسمى صلح الحديبية فتحاً، وهو بداية للفتح الأعظم (فتح مكة) الذي تمّ به العزّ والتمكين والنصر للمؤمنين[٣]، فكان من المناسب تقديمه في الذكر.

روى البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: « تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية »[٤].

* * *

(١) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ـ محمد الأمين العلوي الشافعي ٤ / ٣٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٩١.

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم ـ أبو الفداء إسماعيل بن كثير ١٣ / ٨٨.

(٤) رواه البخاري ـ باب غزوة الحديبية ٣ / ١٢٧ (رقم الحديث ٣٨٣٥).

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾

الرؤية في قوله: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ ﴾ يحتمل أن تكون بصرية، وأن تكون قلبية، بمعنى (علم)، فإذا كانت بصرية نصبت مفعولاً واحداً وهو (الناس)، وجملة (يدخلون) في موضع نصب على الحال، وإذا كانت قلبية نصبت مفعولين: الأول (الناس)، والثاني جملة (يدخلون)، وصار المعنى: وعلمت علم اليقين دخول الناس في دين الله أفواجاً.

والمعنى يحتملهما، فقد علم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم اليقين هذا الأمر قبل حدوثه، كما أنه رأى بعينه أفواج وفود العرب يدخلون في الإسلام.

وقد ورد الدخول في دين الله بصيغته الفعلية للدلالة على الحدوث والتجدد والاستمرار، فإن الدخول في دين الله كان حدثاً مستمرّاً متجدداً.

والدخول في دين الله تعبير مجازي المقصود منه اعتناق الناس الإسلام، فقد شبّه الدين ببيت أو ما أشبهه يُدخَل فيه، فحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الدخول، فهو استعارة مكنية[1].

« وإنما قال: ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل (في دين الرب) ولا سائر الأسماء لوجهين:

الأول: أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات، فكأنه يقول: هذا الدين إن لم يكن له خَصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول.

والثاني: لو قال: (دين الرب) لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك وأحسن إليك، وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع فلا يكون الإخلاص حاصلاً، فكأنه يقول: أخلص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك »[2].

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٢.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٥٧.

و(أفواجاً) جمع (فوج)، و(الفوج) : الجماعة المارّة المسرعة[١]، والجماعة الكثيفة[٢]، ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً** ﴾ [النبأ : ١٨] .

وقد تقول : لمَ قال : (أفواجاً) ولم يقل : جماعات جماعات، علماً بأن معنى الأفواج : الجماعة إثر الجماعة ؟ نقول : إنه لو قال ذلك ما أفاد التعبير اعتناق الناس الإسلام بسرعة وبكثرة، والواقع يثبت أن الناس صاروا يدخلون في دين الله جماعات جماعات بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين، فصارت القبيلة بأسرها تدخل في الإسلام كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب .

فانظر يا رعاك الله أية دقة هذه ؟ إنه لو وضع بدل (أفواج) أية كلمة أخرى ما أفادت المعنى المطلوب .

* * *

﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا** ﴾

« اختُلف في الباء في قوله سبحانه : ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾، فقيل : للمصاحبة، والحمد مضاف إلى المفعول، أي : فسبّحه حامداً له، أي : نزّهه عما لا يليق به، وأثبتْ له ما يليق به »[٣]، وجاء في (البحر المحيط) : « أي : ملتبساً بحمده على هذه النِّعَم التي خوّلكها، من نصرك على الأعداء، وفتحك البلاد، وإسلام الناس »[٤] .

« وقيل : للاستعانة، والحمد مضاف إلى الفاعل، أي : سبّحه بما حمد به نفسه »[٥] . ويعرّف النحاة باء الاستعانة فيقولون : « هي الداخلة على آلة الفعل ؛

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٨٨ .

(٢) تفسير الكشاف ٣ / ٣٦٤ .

(٣) مغني اللبيب - ابن هشام ٢ / ١٢٩ .

(٤) البحر المحيط ٨ / ٥٢٥ .

(٥) مغني اللبيب - ابن هشام ٢ / ١٢٩ .

فلذا تسمى باء الآلة»[١]. فهي للآلة إذن، أي: إن حمد الله آلة في التسبيح والتنزيه، بمعنى أنه يقول في تنزيهه لله تعالى: الحمد لله رب العالمين[٢].

وقد قدّم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيداً لإجابته استغفاره. وهذا على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة[٣].

وقد كان مقتضى الظاهر أن يقول: (فسبح بحمده)؛ لتقديم اسم الجلالة في الآيتين السابقتين، ولكنه قال: ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ بوضع الاسم الظاهر موضع المضمر، فما السبب؟

يبين ابن عاشور سبب ذلك فيقول: إن ذلك يعود إلى «ما في صفة (رب) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من الإيماء إلى أن من حكمة ذلك النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمة أنعم الله بها عليه، إذ حصل هذا الخير الجليل بواسطته، فذلك تكريم له وعناية به، وهو شأن تلطف الرب بالمربوب»[٤].

لقد قرن التسبيح بالحمد في الآية الأخيرة من السورة، ولهذه الآية ارتباط بأول السورة وموضوعها، فأول السورة تتحدث عن مجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه، وعن مجيء الفتح، وهما نعمتان تستوجبان التنزيه لله والشكر له؛ ولذا جاء التسبيح مقترناً بالحمد في مقابل تينك النعمتين.

ثم إننا نلاحظ أنه أضاف الحمد إلى الرب دون غيره من الصفات، وهذه الإضافة لها دلالتها؛ إذ الرب هو المالك والسيد والمنعم والمربي، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مربي نبيه ومالكه وسيده والمنعم عليه والمتفضل عليه بالنصر والفتح وشرح صدور الناس للدخول في الإسلام، فهو أحق بالحمد والتسبيح والاستغفار.

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١/ ٥٢٦.

(٢) ينظر حاشية الدسوقي على مغني اللبيب ١/ ١٥٠.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٤.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٦.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

هنا أفادت (إنّ) التعليل، إضافة إلى إفادتها التوكيد، جاء في (التحرير والتنوير): «وحيث كان التوكيد بـ (إنّ) هنا غير مقصود به رد إنكار ولا إزالة تردد... فقد تمحّض (إنّ) لإفادة الاهتمام بالخبر بتأكيده، وقد تقرر أن من شأن (إنّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غَناء فاء الترتيب والتسبب، وتفيد التعليل وربط الكلام بما قبله، كما تفيد الفاء... فالمعنى هو شديد القبول لتوبة عباده، كثير قبوله إياها»(1).

وأما (كان) ههنا فهي تفيد الدوام والاستمرار، فهي بمعنى (لم يزل) كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ [النساء: ٩٦]، جاء في (شرح التسهيل) لابن مالك: «وقد يقصد بها الدوام كما يقصد بـ (لم يزل) كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً**﴾ [الأحزاب: ٢٧، الفتح: ٢١]»(2).

وجاء في (همع الهوامع): «تختص (كان) بمرادفة (لم يزل) كثيراً، أي: أنها تأتي دالّة على الدوام، وإن كان الأصل فيها أن تدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى مع انقطاعه عند قوم، وعليه الأكثر، كما قال أبو حيان، أو سكوتها عن الانقطاع وعدمه عند آخرين، وجزم به ابن مالك.

ومن الدالة على الدوام الواردة في صفات الله تعالى، نحو: ﴿**وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾ [النساء: ١٣٤] أي: لم يزل متصفاً بذلك»(3).

وجاء في (البرهان) للزركشي: «فحيث وقع الإخبار بـ (كان) عن صفة ذاتية فالمراد الإخبار عن وجودها وأنها لم تفارق ذاته؛ ولهذا يقررها بعضهم بـ (ما زال)

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٦.

(٢) شرح التسهيل - ابن مالك ١/ ٣٦٠.

(٣) همع الهوامع - السيوطي ٢/ ٩٩.

فراراً مما يسبق إلى الوهم أن (كان) يفيد انقطاع المخبر به عن الوجود لقولهم: دخل في خبر (كان) »[١].

وأما (توّاباً) فهي صيغة مبالغة، والشيء إذا كُرّر فعله بُني على (فعّال).

وتستعمل هذه الصيغة لمن كرر فعله حتى صار له صناعة كالبزّاز والعطّار والحدّاد. جاء في (المخصص): « والباب فيما كان صنعة ومعالجة أن يجيء على فَعّال؛ لأن فَعّالاً لتكثير الفعل، وصاحب الصنعة مداوم لصنعته فجعل له البناء الدالّ على التكثير كالبزّاز والعَطّار وغير ذلك مما لا يحصى كثرة »[٢].

وجاء في (معاني الأبنية في العربية): « والنجار للذي حرفته النجارة، والعطّار والنقّاش وغيره، فنقل هذا البناء إلى المبالغة، فعندما تقول: (هو كذّاب) كان المعنى كأنما هو شخص حرفته الكذب كالنجّار الذي حرفته النجارة، وعندما تقول: (هو صبّار) كأنما هو شخص حرفته وصنعته الصبر »[٣].

وهكذا فإن (توّاباً) في حق الله تعالى تدل على استغراق كمال معناها وتأكيد اتصافه بها، وفي ذلك إغراء وحثّ للعبد أن يطلبها منه، جاء في تفسير (فتح القدير) أنه تعالى « من شأنه التوبة على المستغفرين له أن يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم، و (توّاب) من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه ـ سبحانه ـ مبالغ في قبول توبة التائبين »[٤].

وجاء في (تفسير الرازي) في قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً** ﴾ [نوح: ١٠]: « فكأن هذا هو حرفته وصنعته »[٥].

(١) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٤ / ١٢٣.

(٢) امخصص ١٥ / ٦٩.

(٣) معاني الأبنية في العربية ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) فتح القدير ٥ / ٤٩٦.

(٥) تفسير الرازي ٣٠ / ١٣٨.

وههنا سؤال: لماذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ٣] وقد كان مقتضى الظاهر أن يقول: (واستغفره إنه كان غفّاراً) كما قال في موضع آخر: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [نوح: ١٠]؟

والجواب أن هذا يسمى احتباكاً: وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه(١).

ونقل السيوطي عن الأندلسي في (شرح البديعة) أنه عرّف الاحتباك بقوله: «وهو أن يحذف من الأول ما أُثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أُثبت نظيره في الأول»(٢).

وجاء في (روح المعاني): «وقال بعض الأفاضل: إن في الآية احتباكاً، والأصل: واستغفره إنه كان غفاراً. وتب إليه إنه كان توابا»(٣).

وجاء في (التحرير والتنوير): «ومقتضى الظاهر أن يقال: (إنه كان غفارا) كما في آية ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ فيُجرى الوصف على ما يناسب قوله (استغفره)، فعُدل عن ذلك تلطفاً مع النبي ﷺ بأنّ أمرَه بالاستغفار ليس مقتضياً إثبات ذنب، لما علمت آنفاً من أن وصف (توّاب) جاء من (تاب عليه) الذي يستعمل بمعنى وفّقه للتوبة، إيماء إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى»(٤).

ولتوضيح هذا الاحتباك أقول: إن معنى الغفر هو الستر والتغطية والمحو(٥)، و(غفر الله ذنوبه) أي: سترها وأزالها، وأما التوبة فهي الرجوع عن الذنب(٦)،

(١) ينظر البرهان ٣/ ١٢٩، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها ـ الدكتور أحمد مطلوب ١/ ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) الإتقان ٥/ ١٦٢٢، وينظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١/ ٥٥ ـ ٥٧.

(٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٥٩.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٥) لسان العرب ـ مادة غفر.

(٦) لسان العرب ـ مادة توب.

فالتوّاب في حق الله ـ عز وجل ـ هو الكثير القبول للتوبة، وفي صفة العباد هو الكثير الرجوع عن الذنب، أي: لا يتمادى فيه.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ جمع في هذه الآية بين المغفرة والتوبة، ليبين لنا مدى رحمته بعباده، فهو سبحانه يغفر الذنوب فيسترها ويمحوها، وهو أيضاً يقبل توبة من تاب من العصاة وأناب تفضلاً منه ومنّة، وأما في آية نوح فلم يزد على صفة المغفرة، وهكذا يتبين لنا مدى رحمة الله سبحانه وتعالى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ويفهم من هذا الاحتباك كذلك أنه «دلّ الأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة، وبتعليل الأمر بالتوبة على تعليل الأمر بالاستغفار»[1].

ثم إن في «اختيار (توّاب) على (غفّار) إشارة إلى أن الاستغفار إنما ينفع مع التوبة والندم»[2].

ثم إن هناك سبباً صوتيّاً لاختيار (توّاباً) في سورة النصر ذكره ابن عاشور، وهو «أن وصف (توّاب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة (أفواجاً)؛ لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة»[3].

(١) نظم الدرر في تناسب الآي والسور ـ برهان الدين البقاعي ٢٢/ ٣٢١.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ٤٠٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٨.

خاتمة البحث:

نحمدك اللهم كما علمتنا أن نحمد، ونصلي ونسلم على خير خلقك سيدنا محمد، وبعد:

- ترتبط آيات هذه السورة ببعضها أيما ارتباط، بحيث تبدو السورة كأنها لوحة جميلة متكاملة الأجزاء.

- لسورة النصر تناسب مع السورة التي قبلها - وهي سورة الكافرون - ومع السورة التي تليها وهي سورة المسد.

- يعنى القرآن الكريم في هذه السورة عناية كبيرة بانتقائه الألفاظ، حيث ينتقي الألفاظ بدقّة ويضعها في المكان الذي يتطلبه سياق النص، حيث تصل هذه العناية إلى درجة أنه لا يمكن استبدال لفظة مكان أخرى وإن كانت مرادفة لها في المعنى، كما رأينا ذلك في اختياره لفظة (جاء) بدل لفظة (أتى)، واختياره لفظة (أفواجاً) بدل لفظة (جماعات) وهكذا. كما يعنى بانتقاء الأساليب والعبارات التي ترسم الصورة البيانية رسماً دقيقاً.

ولله الحمد أولاً وآخراً.

قائمة المصادر

- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - تحقيق مركز الدراسات القرآنية - المملكة العربية السعودية.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المعروف بـ(تفسير أبي السعود) - أبو السعود محمد بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي - دراسة وتحقيق عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- البرهان في تناسب سور القرآن - أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور سعيد الفلاّح - دار ابن الجوزي - الطبعة الأولى - المحرم ١٤٢٨هـ.
- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
- التحرير والتنوير - محمد الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - محمد الأمين العلوي الشافعي - دار طوق النجاة، الطبعة الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرين - مؤسسة قرطبة - الجيزة - مصر - الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل - محمد بن مصطفى الخضري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.
- حاشية الدسوقي على مغني اللبيب - مصطفى محمد عرفة الدسوقي - مطبعة المشهد الحسيني - القاهرة.

- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي - دار صادر - بيروت.
- حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي - مكتبة الحقيقة - إِستانبول - تركيا ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي - دار إِحياء التراث العربي - بيروت.
- شرح التسهيل - ابن مالك الأندلسي - تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد البدوي المختون - دار هجر - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- شرح المفصل - ابن يعيش النحوي - إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
- صحيح البخاري - محمد بن إِسماعيل البخاري - تحقيق محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- على طريق التفسير البياني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - جامعة الشارقة - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي الشوكاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.
- الكتاب - أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه - نسخة مصورة عن طبعة بولاق - مكتبة المثنى بغداد.
- لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف بمصر.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - الأردن - الطبعة الخامسة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- المخصص - ابن سيده - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ببيروت، مصور عن الطبعة الأميرية ١٣٢١هـ.

- معاني الأبنية في العربية - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - الأردن - الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م -
- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - الأردن - الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - الدكتور أحمد مطلوب - مطبعة المجمع العلمي العراقي - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب - ابن هشام الأنصاري - تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت - الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي - فخر الدين الرازي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - ضبط ومراجعة محمد خليل عيتاني - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- نظم الدرر في تناسب الآي والسور - برهان الدين البقاعي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع - جلال الدين السيوطي - شرح وتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم - عالم الكتب ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.